الختم والطبع
ودلالتهما البلاغية في القرآن الكريم

إعداد

أ.د: السيد محمد السيد سلام

تقديم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . وبعد:

فهذه دراسة موجزة تبحث المدلول البلاغي لكلمتين من كلام رب العزة -تبارك اسمه -تداخل مفهومهما في كلام اللغويين والمفسرين فرأوا أن إحداهما بمعنى الأخرى، أو كأن إحداهما الأخرى، ومن فرّق بينهما لم يذكر كبير معنى، مع أن لكل كلمة في بيان الله دلالة، وذاك ما قصدت إليه دراسة مادتيهما:(ختم) و (طبع)، وردت الأولى خمس مرات في القرآن مسلطة على القلب والسمع -بصرف النظر عن الإفراد والجمع - في آيتين، وعلى القلب وحده في آيتين، وعلى الأفواه في آية واحدة، وجاءت الثانية (طبع) إحدى عشرة مرة، مسلطة على الثلاثة (القلب والسمع والبصر) في آية واحدة فقط، وعلى القلب فقط في بقية شواهدها، تأتي تارة مسندة إلى ظاهر اسم الجلالة، وتارة إلى ضميره، كما جاء بعضها بصيغة الماضي وبعضها بصيغة المضارع، وختمت معظم شواهدها بنفي الإيمان، أو السمع، أو الفقه، أو العلم، ولكل شاهد دلالة في سياقه، وبين مقامه وسبب نزوله، والدلالة البلاغية تُستمد من كل ذلك.

ومن ثم قام أساس البحث على : مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، ودليل لموضوعاته، وثبت لمصادره ومراجعه، فالتمهيد يبحث مسألتين:

الأولى: المعنى اللغوي للمادتين وما بينهما من تشابك.

والثانية: تصنيفهما في القرآن الكريم.

والمبحث الأول: استعمال (ختم و طبع) على القلوب والأسماع، مع دراسة البناء الذي أقيم عليه كل شاهد، والفروق بينه وبين غيره، وخدمة ذلك لدلالة (ختم)، والثاني: استعمال (ختم) على القلوب واختصاصها بالأفواه، وتنوعت شواهده، واختلفت مقاماته، ودلالاته التى حاولت هذه الدراسة تجلية شيء منها بإيجاز، والثالث : استعمال (طبع) على القلوب وحدها، واعتمدت الدراسة في كل ذلك على التحليل والتعليل والمناقشة، متخذة منهج السلف في القضية، وداعمة إياه بأقوال بعض أهل العلم .

والله من وراء القصد، وهو نعم المولى ونعم النصير

تمهيد :

١- المعاني اللغوية لمادتي (ختم وطبع)

هناك تداخل كبير بين معنى المادتين لدرجة أن العلماء يجعلون الختم طبعا، والطبع ختما؛ لذلك لا أسرد هنا كلامهم في معنى (ختم) ثم كلامهم في معنى (طبع) إنما أسوق هذه المعاني من خلال المادتين معا، حتى تتجلى الفروق الدقيقة بينهما فتكون مرآة في طليعة هذه الدراسة الموجزة ترشد إلى شيء من أسرار اختلاف التعبير بـ (ختم) في موطن من القرآن وبـ (طبع) في موطن آخر، وبغيرهما في ثالث... وهكذا.

ففي معنى (ختم) يقول ابن فارس: الخاء والتاء والميم أصل واحد، وهو بلوغ آخر الشيء، يقال: ختمت العمل، وختم القارئ السورة، فأما الختم وهو الطبع على الشيء فذلك من الباب أيضا؛ لأن الطبع على الشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره وفي معنى (طبع) يقول: "الطاء والباء والعين أصل صحيح، وهو مثل على نهاية ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها، يقال: طبعت على الشيء طابعا، ومن ذلك: طبع الله على قلب الكافر كأنه ختم عليه، حتى لا يصل إليه هدى ولا نور فلا يوفق لخير"⁽¹⁾.

فنلحظ التقارب الشديد في عرضه معنى المادتين حتى قال في الأولى: فأما الختم وهو الطبع..، وقال في الثانية: طبع الله على قلب الكافر كأنه ختم

---

(١) مقاييس اللغة (ختم) و (طبع).

عليه، وهذا التداخل كان من أهم دوافع هذا العمل حتى يتجلى سر التعبير بـ (ختم) هنا، و(طبع) هناك.

أما الراغب الأصفهاني فدرسهما كأنهما شيء واحد وهو يتحدث عن معنى (ختم) ثم فرق بينهما من جهة العموم والخصوص وهو يتحدث عن معنى (طبع) فبين أولاً أنهما على وجهين: الأول: مصدر ختمت وطبعت، وهو تأثير الشيء كنقش الخاتم والطابع.

والثاني: الأثر الحاصل عن النقش، ويتجوز بذلك تارة في الاستيثاق من الشيء والمنع منه، اعتبارا بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب، نحو "ختم الله على قلوبهم"، "ختم الله على سمعه وقلبه".

ووضح ذلك بأنه إشارة إلى ما أجرى الله به العادة أن الإنسان إذا تناهى في اعتقاد باطل أو ارتكاب محظور ولا يكون منه تلفت بوجه إلى الحق، يورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصي، وكأنما يختم بذلك على قلبه...(١) معنى ذلك أنه يجعل الختم على القلب والطبع عليه من باب المجاز عن المنع، والاستيثاق عليه حتى لا يدخله نور الإيمان، ولا يخرج منه ظلام الكفر، وذلك عقابا له، ويؤكد هذه الوجهة قوله بعدها: (وعلى هذا النحو استعارة الإغفال في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ (الكهف: ٢٨) واستعارة

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ختم) و (طبع).

الكِنِّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ (الكهف: ٥٧)(١) واستعارة القساوة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ (المائدة: ١٣).

وسيأتي – خلال الدراسة – مناقشة ذلك إن شاء الله.

أما في حديثه عن معنى (طبع) فقال:" الطبع: أن تصور الشيء بصورة مّا كطبع السكة وطبع الدرهم، وهو أعم من الختم، وأخص من النقش وبين ما في معنى (طبع) من السجية، أي: نقش النفس بصورة مّا، إما من حيث الخلقة، وإما من حيث العادة"(٢)، وفي ذلك ملحظ دقيق يشير إلى أن الطبع يتمكن من قلب الكافر وكأنه سجية فيه، ثم ذكر معنى طبع السيف بكسر الطاء أي: دنسه، مشيرا إلى أن بعضهم حمل قوله تعالى: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ (النحل: ١٠٨) على ذلك أي: دنَّسه، كقوله تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ (المطففين: ١٤) وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ (المائدة: ٤١)(٣).

أطلت الأخذ من الراغب لما في بيانه من دقائق رجع إليها كثير من العلماء، وسنحتاج إليها في دراسة أسرار التعبير وفروقه.

وجعل ابن منظور الختم بمعنى الطبع، فقال: ختمه يختمه ختما طبعه.. والختم على القلب: ألا يفهم شيئا، ولا يخرج منه شيء كأنه طبع، وسوى بينهما في استشهاده فقال: وفي التنزيل العزيز: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ (البقرة: ٧) هو كقوله: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ (النحل: ١٠٨) .

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

وذكر من معانى الختم: الإنساء أو الربط مستدلا بقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ (الشورى: ٢٤) قال قتادة: المعنى: إن يشأ ينسك ما آتاك، وقال الزجاج: معناه: إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم... وستتجلى هذه المعاني في دراسة هذا الشاهد.

وفي معنى (طبع) قال: والطبع: الختم، وهو التأثير في الطين ونحوه... وقال أبو إسحاق النحوي: معنى طبع وختم في اللغة واحد، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن يدخله شيء، وكما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ (محمد: ٢٤) وقال ابن الأثير: كانوا يرون أن الطبع هو الرين، قال مجاهد: الرين أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله. هذا تفسير الطبع(١).

وهكذا توارد أصحاب المعاجم على هذه المعاني وداروا حولها وتناقلوها.

ولكن أبا هلال العسكري رأى أن الطبع أشد من الختم، وكأن الختم مرحلة أولى يليها الطبع، ويقول في ذلك: " الطبع أثر يثبت في المطبوع ويلزمه، فهو يفيد من معنى الثبات واللزوم ما لا يفيده الختم، ولهذا قيل: طبع الدرهم طبعا. وهو الأثر الذي يؤثره فلا يزول عنه ،كذلك أيضا قيل:

---

(١) ينظر لسان العرب (ختم) و (طبع).

طبع الإنسان، لأنه ثابت غير زائل، وقيل: طبع فلان على هذا الخلق إذا كان لا يزول عنه. وقال بعضهم: الطبع علامة تدل على كنه الشيء..."(١)

ولهذه الفروق وغيرها جاء التعبير القرآني تارة بـ (ختم) وأخرى بـ (طبع)، وليس معنى ذلك طمس هذه الحواس، وعدم استعمالها في شيء، بل المراد أنها ختم عليها، أو طبع عليها فلا تتحرك في حق ولا تعمل فيه، ولذلك يقول الأزهري: " فمعنى (ختم) طبع الله على قلوبهم بكفرهم، وهم كانوا يسمعون ويبصرون ولكنهم لم يستعملوا هذه الحواس استعمالا يجدي عليهم فصاروا كمن لم يسمع، ولم يبصر، ولم يعقل، كما قال الشاعر:

صم عما ساءه سميعُ"(٢).

وتأتي ختم بمعنى (منع) وسيأتي ذلك في سياق كل شاهد من شواهد (ختم) و (طبع)، وستتجلى خصائص التعبير بكل مادة منهما دون الأخرى إن شاء الله .

٢- استعمال المادتين في القرآن الكريم:

جاءت (ختم) في القرآن الكريم في خمسة شواهد، ثلاثة منها بصيغة الماضي، واثنين بصيغة المضارع، وتوجهت الصيغة الأولى إلى القلوب أولا ثم الأسماع مرة، وإلى الأسماع ثم القلوب ثانية، وإلى القلوب وحدها ثالثة غير أنها في هذه الثالثة مسبوقة بـ (أخذ الله سمعكم وأبصاركم)، والصيغة الثانية توجهت مرة إلى الأفواه، والثانية كان الخطاب فيها موجها إلى النبي صلى

---

(١) الفروق اللغوية ص٨٥ علق عليه محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط١ ١٤٢١هـ.

(٢) تهذيب اللغة (ختم).

الله عليه وسلم – معلقا على المشيئة: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ (الشورى: ٢٤) واختلف العلماء في معنى ذلك، وسيأتي بيانه.

– أما (طبع) فجاءت في أحد عشر شاهدا، ستة منها بصيغة الماضي، أربعة بالبناء للمعلوم ومسندة إلى اسم الجلالة، واثنين بالبناء للمفعول، وكلها موجهة إلى القلوب إلا واحدة فشاملة للقلوب والأسماع، وختم بعضها بنفي الإيمان عنهم، وبعضها بنفي العلم، وبعضها بنفي الفقه، وبعضها عطف عليها ا تباع الأهواء، أما التي شملت الثلاثة (القلوب والأسماع والأبصار) فكانت نهايتها إثبات الغفلة لهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ (النحل: ١٠٨) تلك ستة شواهد، أما الخمسة الباقية فجاءت بصيغة المضارع ثلاثة منها مسندة إلى صريح اسم الجلالة، واثنين إلى ضميره، ومصوغة بضمير العظمة (نطبع) وكلها موجهة إلى القلوب، إما قلوب الكافرين، وإما قلوب المعتدين كما وسمهم القرآن، وإما قلوب الذين لا يعلمون، وإما قلوب المتكبرين المتجبرين، وهذه الأخيرة هي الوحيدة التي أفرد فيها القلب ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ (غافر: ٣٥) ، وقد ترد مرتين في سورة واحدة وبينهما ترابط وإن اختلفت الصياغة كما في الأعراف حيث قال سبحانه ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ (الأعراف: ١٠٠) وفي الآية بعدها قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٠١) وكما في التوبة حيث صيغت في الآية السابعة والثمانين بالبناء للمفعول: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ (التوبة: ٨٧) وفي الآية الثالثة والتسعين بالبناء للمعلوم ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ (التوبة: ٩٣) ولكل سياق دلالته ودواعيه التي تناسب مقامه.

المبحث الأول

[استعمال (ختم) و (طبع) على القلوب والأسماع]

جاءت (ختم) على القلوب والأسماع بصيغة الجمع في القلوب والإفراد في السمع مرة، وبصيغة المفرد فيهما أخرى، والأولى تقدمت فيها القلوب. قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ (البقرة: ٧).

والثانية تقدم فيها السمع، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الجاثية: ٢٣)، وبينهما فروق ستبينها الدراسة.

أما (طبع) فجاءت على القلوب، والأسماع، والأبصار، وذلك في شاهد واحد.

قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ (النحل: ١٠٨) وقد وردت كلها بصيغة الجمع، ولم يأت على الأبصار ختم، بل جاءت عليها الغشاوة، ولم يأت عليها طبع إلا في هذه الآية، ولكن يمكن أن يطبع على قلوبهم فتسلب عن الأسماع صفتها، وعن العقول عملها كما ورد في آيات تسلط الختم فيها على القلوب، وذيلت بقوله سبحانه ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (فصلت: ٤) و ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة: ٨٧) يعنى آلات أخرى يؤدي الطبع على القلوب إلى تعطيلها عن سماع الحق وفقهه.

والملاحظ هنا أن (طبع) فيها عموم ليس في ختم حيث تسلطت على الثلاثة (القلب والسمع والبصر) وأدت إلى تعطيل السمع تارة والفقه أخرى.

وتدور الدراسة الآن حول الفرق بين (ختم) مسلطة على القلوب والسمع فقط، واختصاص البصر بالغشاوة، و (طبع) مسلطة على الثلاثة وذلك في آية البقرة وآية النحل السابقتين، مع اشتراكهما في إفراد السمع.

وفي الآيتين دلالة على أن الطبع أشد من الختم، وفيه من الثبات واللزوم ما ليس في الختم كما سبق في تفريق أبي هلال العسكري بينهما، وفي قول ابن منظور: والختم على القلب ألا يفهم شيئا ولا يخرج منه شيء كأنه طبع، فقوله (كأنه طبع) يفيد أصولية الطبع وثباته وكأن الختم شبيه به، والطبع هو آخر مراحل التغطية وأقواها على القلوب، فلا يدخل فيها إيمان ولا يخرج منها كفر، ولا يرجى لها برء.

وبالنظر في الآيتين : آية البقرة، وآية النحل نجد أنهما في سياق الحديث عن الكافرين حيث جاءت آية البقرة تعليلا لاستواء الإنذار وعدمه عندهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦﴾ (البقرة: ٦) والسر في ذلك هو ذلك الختم على قلوبهم، والذي صار إليهم بإنكارهم وسوء صنيعهم، وقد جاء الموقف هنا ملخصا حالتهم في آيتين فقط، أما آية النحل فقد سبقت بتفصيل بعض افتراءاتهم كقولهم ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾(النحل:

١٠٣) وقد كذبهم الله – عز وجل – بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣) .

قيل : كان غلامان نصرانيان يقرآن كتابا لهم بلسانهم، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يمر بهما فيسمع قراءتهما، وكان المشركون يقولون: يتعلم منهما فأكذبهم الله بهذه الآية : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾(النحل: ١٠٣)⁽¹⁾ "ونفي عنهم بذلك الهداية وأثبت لهم العذاب فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (النحل: ١٠٤)، ثم بين افتراءهم، وأثبت لهم الكذب في الآية بعدها فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (النحل: ١٠٥)، ثم أثبت في الآيات بعد ذلك غضبه عليهم، وبين استحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة، ثم جاء هذا الحكم القاطع الجامع بالطبع على القلوب والسمع، والأبصار، ثم التذييل القاطع بغفلتهم: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (النحل: ١٠٨)، فلهذه الأحداث التي سبقت الحكم وفصلت المواقف كان التعبير بـ (طبع) وكان شاملا للثلاثة، وعلى ذلك فالطبع أشد من الختم، وسبق أن العلماء يشبهون الختم به، فهو في آية البقرة يتناسب مع الإيجاز الجامع لموقفهم، ولكنه يتميز بالتفصيل الذي يجعل للقلوب ختما وللسمع ختما، وكأن كلا منهما من نوع، حيث تكرر حرف الجر والاستعلاء، وهذا آكد في شدة الختم، ولكنه لم يقو

---

(١) بحر العلوم للسمرقندي ٢٩٢/٢ تحقيق د . محمد مطرجي دار الفكر – وينظر البحر المديد لابن عجيبة ٨٣/٤دار الكتب .

قوة الطبع، حيث جاء في آية النحل على الثلاثة دون تكرار هذا الحرف، وكأن الطبع حيث يقع يثبت استعلاؤه وتتحقق قوته دون حرف الاستعلاء.

فتجلت شدة الختم بتكرار الحرف، وفي ذلك يقول الزمخشري: " فإن قلت: أي فائدة في تكرير الجار في قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ ﴾ وقلت: لو لم يكرر لكان انتظاما للقلوب والأسماع في تعدية واحدة، وحيث استجد للأسماع تعدية على حدة كان أدل على شدة الختم في الموضعين. "(١)

معنى ذلك أن الختم على القلوب له خصوصية تختلف عن خصوصية الختم على السمع، ومن ثم جمع القلوب؛ لأنها المحرك الرئيس لبقية أجزاء الجسد، وهى الحكم على صلاحه أو فساده كما جاء في الحديث الشريف "ألاو إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله."(٢) أما توحيد السمع فعلله العلماء بأنه مصدر في أصله، والمصادر لا تجمع، ويمكن أن يعلل بأن حاسة السمع واحدة، وعملها ينحصر في التلقي.

ويَدْعَم ذلك الفهم قول السيد الشريف: " في توحيد السمع وجمع أخويه إشارة لطيفة إلى أن مدركاته نوع واحد، ومدركاتهما أنواع مختلفة" فما تسمعه الأذن يحركه القلب إلى الخير أو الشر، والقلوب تختلف في ذلك فكان أدعى إلى جمعها؛ لذلك لما حكى سبحانه تفرق اليهود وعدم تآلفهم،

---

(١) الكشاف ١٦٣/١ طبعة دار المعرفة.

(٢) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

قال تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ الحشر: ١٤، فأساس التنافر والتقارب ليس الأسماع بل القلوب التي تتلقى عن كل الحواس، وتوجه، فهي المقياس الذي تقاس به درجة الكفر أو الإيمان؛ لذلك جمعها القرآن الكريم مع التعبير بـ (ختم) في شاهدين من خمسة شواهد سأتحدث عنها .

ومع التعبير بـ (طبع) جاءت كلها مجموعة جمعا صريحا (قلوب) إلا قوله تعالى ماقتا كل من يجادلون في الله بغير سلطان آتاهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ (غافر: ٣٥).

وهذا يحقق أن كل قلب متكبر جبار عليه طبع يختلف عن غيره، وهذا يرجع إلى درجة التكبر والتجبر، مما يوحي بأن هذا الطبع من الله عقاب، ولا يظلم ربك أحدا، وإن كان الكفر واحدا إلا أن درجات الجزاء متفاوتة، وقرئ "على كل قلب" بالتنوين، وما بعده صفة، فوصفه بالكبر والتجبر لأنه منبعهما، كقولهم: رأت عيني وسمعت أذني، وجوز أن يكون ذلك على حذف مضاف، أى كل ذى قلب متكبر جبار.. (١).

أما السمع فجاء مفردا مع التعبير بـ (ختم) وكذلك (طبع) لأنه ليس موجها كالقلب بل وظيفته التلقي كما سبق، وفي آية البقرة قرأ ابن أبي عبلة (أسماعهم)، وهنا تتجلى المطابقة بين القلوب والأسماع والأبصار، وهذه

---

(١) ينظر روح المعانى ٦٩/٢٤. - ٢- ينظر مختصر في شواذ القراءات من كتاب البديع لابن خالويه ص١٠

قراءة شاذة(١)، ولكن قراءة الجمهور على التوحيد تبين الفرق بين خصوصية القلب، وخصوصية البصر الذي يتقلب فيكون مصدر الاعتبار والعظة، ويعلل بعض العلماء إفراد السمع بأن ما قبله وما بعده يدل على أنه أريد به الجمع، وإما لكونه مصدرا حقيقة، وحذف ما أضيف إليه لدلالة المعنى؛ أي: حواس سمعهم(٢).

وعلى ذلك فالشدة في الختم مع أهل الكفر جاءت من تفصيله بأن جعل للقلوب ختما وللسمع آخر فأغلقت منافذ الهداية وكتمت أبوابها؛ لذلك جعل الزمخشري : الختم أخا الكتم(٣) . مع أن الكتم لم يأت على القلوب، بل جاء فيما يتعلق بها كالشهادة نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾البقرة: ٢٨٣، والحق نحو قوله: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ البقرة: ٤٢، وآل عمران ٧١، والإيمان كقوله : ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ غافر: ٢٨، والبينات كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ البقرة: ١٥٩، ولم يأت على القلب أو السمع، وهذا يدل على حتمية الفرق بينهما، فالختم سبقت معانيه في التمهيد، أما الكتم فيدل على ستر الشيء وإخفائه، وفرق بين أن يكتم الشيء فلا يخرج، وأن يختم على القلب أو السمع فلا يصل إليه شيء، ولا يخرج منه شيء.

---

(١) ينظر مختصر في شواذ القراءات من كتاب البديع لابن خالويه ص١٠

(٢) ينظر الكشاف١/١٦٤. والبحر المحيط ١/ ١٤٩.

(٣) ينظر الكشاف ١/١٥٥

ولكنه سبحانه في آية البقرة اختص الأبصار بالغشاوة وهى كما قال الراغب : ما يغطى به الشيء .

واستعملت بهذا المعنى أيضا مع الختم على السمع والقلب في قوله تعالى : ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ الجاثية: ٢٣، فالأبصار إما أن يطبع عليها كالقلوب والسمع – كما في آية النحل – فلا ينفذ إليها نور الإيمان ولا تعتبر بالحق حين تراه، وهذا أقوى غطاء، وقد جاء في مرحلة تتناسب مع بغيهم وافترائهم الكذب وتماديهم فيه، فكان التعبير بـ (طبع) أنسب لذلك مع شموله للثلاثة: القلب والسمع والبصر.

أما تعليل جعل الغشاوة على الأبصار في آيتي البقرة والجاثية فقد بينها ابن المنير الإسكندري بقوله : " وكان جدي – رحمه الله – يذكر هذا ويزيد عليه أن الأسماع والقلوب لما كانت محوية كان استعمال الختم لها أولى، والأبصار لما كانت بارزة، وإدراكها متعلق بظاهرها كان الغشاء لها أليق(١)".

تعليله هذا يفيد أن القلوب والأسماع تحوي أمورا كثيرة، وبالنسبة لهم تحوي ضلالا يحول بينها وبين أن تستجيب لله سبحانه فكان استعمال الختم لها أليق، بخلاف الأبصار فإنها ترى وتنصرف عما رأته، أو لا تعتبر بما رأته، وهذا غطاء التعامي عن آيات الحق . ولكن لو تأملنا في لفظ (غشاوة) لوجدناه أخف في أثره وحجمه من الختم والطبع . فلفظها يدل على أنها غطاء رقيق تلوح لهم الحقائق منه وتختفي، ولكنهم لا يعتبرون بما يظهر،

---

(١) حاشيته على الكشاف ١/ ١٦٣.

وفي هذا إمهال لهم؛ لأن الاعتبار يكون بالنظر أكثر من السمع، وهو الوسيلة إلى اعتبار القلب كما قال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ النمل: ٦٩، أي: نظر اعتبار يهدي إلى الحق، فالنظر بالنسبة لهم عليه غطاء التعامي وهو غطاء غير ما يتعارفه الناس كما ذكره الزمخشري، وهذا يختلف عن الطمس الذي هو محو الأثر كما قال سبحانه ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ يس: ٦٦، فالغشاء سبب في الصرف عن الحق، أما الختم والطبع فمنع من دخول الحق وخروج الباطل ليكون ذلك حجة عليهم، فهذا منع كامل .

أما الغشاء فغطاء يحول دون رؤية الحق فقط، وضحه الزمخشري في بيان قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يس: ٩، قال: " أي غطينا أبصارهم، وجعلنا عليها غشاوة عن أن تطمح إلى مرئي "(١).

ويقول السيوطي: "فكانوا يقولون هذا محمد، فيقول أين هو أين هو؟ ولا يبصر"(٢) .

فهذا التعبير يدل على أن الله سبحانه وتعالى كفى نبيه والمؤمنين شرهم، حيث صد أنظارهم عنهم، وليس ثمة ختم ولا طبع.

وعلل السيد الشريف هذا الفرق بين الختم والغشاوة بقوله: "قيل لما كان إدراك القلب والسمع من جميع الجوانب جعل المانع فيها الختم الذي

---

(١) الكشاف ٣/٣١٦.

(٢) أسباب النزول ٢/٢٧٣ كتاب الجمهورية.

يمنع من جميع الجهات، ولما كان إدراك البصر من جهة المقابلة فقط خص المانع فيه بالغشاء المتوسط بين الرائي والمرئي."(١) ولكنها غشاوة لا يعلم مداها إلا الله، لذلك جاءت منكرة للدلالة على أنها غطاء معين لا يعلمه أحد، وكما قال الزمخشري : غير ما يتعارفه الناس، غير أنه جعل ذلك كله من باب المجاز، وتبعه كثير من المفسرين، حيث قال في ذلك: "فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار؟ قلت: لا ختم ولا تغطية ثم على الحقيقة، وإنما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه، وهما الاستعارة والتمثيل" ووضح ذلك بما يفيد أن قلوبهم لإعراضها عن الحق وصدها عنه كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم التي لا تجتلي آيات الله، كأن عليها غطاء يحول بينها وبين هذا الإدراك، وأما التمثيل فعدم انتفاعهم يجعل قلوبهم كالأشياء المضروب عليها بالختم والتغطية.(٢) ، وهذا القول يخضع لعقيدته الاعتزالية، ولا يسلم له، فالقول الحق أن الختم والطبع قائم على حقيقته، وقد بنيت الدراسة على ذلك، استنادا على موقف أهل السنة، وقد قال البغوي: "وحقيقة الختم الاستيثاق من الشيء كيلا يدخله ما خرج منه، ولا يخرج عنه ما فيه، ومنه الختم على الباب، قال أهل السنة : أي حكم على قلوبهم بالكفر؛ لما سبق من علمه

---

(١)حاشيته على الكشاف ١/ ٦١٤.

(٢) الكشاف ١/ ٥٥ بتصرف.

الأزلي فيهم" (١)، وذكر القرطبي نحو هذا الكلام، ثم قال : الختم يكون محسوسا كما بينا، يقصد (الاستيثاق على الشيء)، ويكون المعنى كما في هذه الآية، فالختم على القلوب عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته، والفكر في آياته .. ،ثم قال: وفي هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال والكفر والإيمان " ومن يضلل الله فما له من هاد، وكان فعل الله في ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ، ثم بين أن هذا جزاء كفرهم(٢).

و الشهاب الخفاجي علق على قول الزمخشري السابق بأنه يقتضي أن إطلاق الختم على بلوغ الآخر معنى مجازي، وهو خلاف المعروف في الاستعمال، ولأنه يقتضي أيضا أنه مأخوذ من الاستيثاق، وكلام الراغب صريح في أنه مجاز برأسه، ثم أجاب الشهاب عن ذلك بأن اشتهاره حتى صار حقيقة في عرف اللغة لا ينافي كونه مجازا بحسب أصل اللغة .. وأن الذي ذكره الراغب من أنه مجاز عن مطلق المنع لا ينافي كونه حقيقة في المنع بضرب الخاتم عليه.(٣)

كأن الشهاب أراد أن يتوسط بين الأقوال فوافق على اعتبار المجاز وبين أنه لا ينافي الحقيقة.

---

(١) معالم التنزيل ٦٤/١ حققه محمد عبد الله النمر وآخران وينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦٢/١ تحقيق محمود حسن .

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٨٦/١ طبعة دار الشعب .

(٣) حاشيته على البيضاوى ٢٧٩/١ باختصار ، والمفردات في غريب القرآن (ختم) .

وأرجح كون الحقيقة هنا أولى ولا يصلح المجاز والتأويل؛ لأن الذي خلق القلوب والأسماع والأبصار قادر على أن يختم عليها فلا تستجيب، ويغشي عليها فلا ترى الحق، ويكون الختم والتغشية نوعا من العقاب بسبب كفرهم بآيات الله، وقد ارتضيت في الدراسة كلها منهج أهل السنة؛ لما رأيته من دلالة المادتين (ختم وطبع) في دقائق السياق .

وهذا المقام يحتم علينا أن ندعم ما ارتضيناه ببعض فتاوى أهل العلم،لأن القضايا العقدية من صميم الفهم البلاغي السديد، وأكتفي بفتوى العلامة فضيلة الشيخ عبد الرحمن البراك – وفقه الله– حين سئل عن القول الفصل في هذه الآية ونظائرها، قال بعد أن ذكر قدرا من شواهد الختم والطبع في القرآن :" كل هذه الآيات تدل على أن الله فعل بهؤلاء الكافرين فعلا من الطبع والختم والقفل، وجعل السد يحول بينهم وبين قبول الحق عقوبة لهم على كفرهم بالحق أول مرة، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الأنعام: ١١٠، وقوله: (فطبع) أي فطبع الله بدليل الآيات الأخرى، وجعْل هذه الآيات من قبيل الاستعارة معناه أنه لم يكن من الله طبع ولا ختم، ولا جعْل شيء أصلا، وإنما ذلك كله راجع إلى انصرافهم واستكبارهم وعنادهم، وهذا يجري على مذهب القدرية من المعتزلة وغيرهم، فعندهم أن قدرة الله ومشيئته لا تتعلق بأفعال العباد، ولا أثر له فيها، فهو لا يضل أحدا ولا يهدي أحدا، وكل هذه الأفعال المضافة إلى الله مجاز، فلا طبع، ولا ختم، ولا غشاوة، ولا قفل ولا

سد ،كما صرح بذلك الزمخشري في الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ البقرة: ٧، قال : "قلت : لاختم ولا تغشية ثم على الحقيقة، وإنما هو من باب المجاز "، وأما أهل السنة فيؤمنون بظاهر هذه الآيات، ويؤمنون بأن كل هذه الأفعال المضافة إلى الله حقيقة، ويقولون : إنه تعالى يضل من يشاء بعدله وحكمته، ويهدي من يشاء بفضله وحكمته، ويزيغ القلوب، ويختم عليها، ويطبع عليها، عقوبة على الكفر، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ الصف: ٥، وقال تعالى: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ النساء: ١٥٥، وذلك أن أهل السنة من أصولهم أن قدرة الله ومشيئته شاملة لأفعال العباد، خلافا للقدرية النفاة، كالمعتزلة الذين يخرجون أفعال العباد عن مشيئة الله وخلقه وقدرته وملكه سبحانه وتعالى عما يقول الجاهلون علوا كبيرا . والله أعلم (١). وتلك خلاصة فائقة تغني عن سرد الأقوال في هذه المسألة .

و هذا هو الحق الذي تبعه كثير ممن اهتموا بالتحليلات البلاغية، فهذا– مثلا – الشهاب الخفاجي بعد أن نقل كلام الراغب الدال على أن الختم ونحوه مجاز، كاستعارة الإغفال في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾ الكهف: ٢٨، والكنّ في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ الكهف: ٥٧ والقساوة في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ﴾ المائدة: ١٣، قال: "وهو كلام حسن ومنه أخذ المصنف – رحمه الله – (يقصد الزمخشري) ثم اعلم أن البزار روى

---

(١) مصدر الفتوى : شبكة نور الإسلام – رقمها٣٩١٨٦- تاريخها ١٤/٤/١٤٣٢هـ

حديثا مرفوعا عن ابن عمر فيه أن الطابع معلق بقائمة العرش، فإذا عمل العبد بالمعاصي واجترأ على الله بعث الله الطابع فيطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئا، فقيل إنه روى مثله في كثير من الأحاديث فحملها من لا يتضلع من الحديث على المجاز، والأقوى كما في شرح السنة للبغوي إجراؤها على الحقيقة إذ لا مانع منها، والتأويل خلاف الأصل ..."(١) وهذا يبين ترجيحه للحقيقة داعما كلامه بحديث ابن عمر وكلام البغوي، وقد سبق أن رجحتها، ويدعم ذلك الترجيح أيضا ما ذكره فخر الدين الرازي من أن هذه الآية في قوم من الكفار عجل الله لهم العقوبة بهذا الختم والطبع في الدنيا، كما عجل لكثير من الكفار عقوبات في الدنيا فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ البقرة: ٦٥، ولسنا ننكر أن يخلق الله في قلوب الكافرين مانعا يمنعهم عن الفهم والاعتبار، ثم يبين أن هذا الختم يمكن فكه بالإيمان، أي يزيل الكافر تلك السمة عن قلبه بأن يأتي بالإيمان ويترك الكفر، وأنه خص القلب والسمع بذلك الختم؛ لأن الأدلة العقلية تستفاد من جانب القلب، والأدلة السمعية تستفاد من جانب السمع .. أما الغشاوة فحقيقتها الغطاء المانع من الإبصار، ومعلوم من حال الكفار خلاف ذلك، فلا بد من حمله على المجاز، وهو تشبيه حالهم بحال من لا ينتفع ببصره في الهداية ..(٢)

---

(١) حاشيته على البيضاوي ١/ ٢٨٠ – ٢٨١ وينظر مسند البزار ٢٥٣/٢ حديث رقم ٥٩٨١.

(٢) ينظر تفسيره ٥٦/٢ – ٥٧.

معنى ذلك أنه يوافق على اعتبار الختم حقيقة ولكن الغشاوة لا تصلح فيها الحقيقة، ولكن لو أنعمنا النظر لوجدنا أن الغشاوة أيضا جعلها الله على أبصارهم بطريقة لا تحول بينهم وبين كل رؤية، وإنما تحول بينهم وبين ما لا يريد الله أن يروه كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩﴾ يس: ٩، والمعنى أنهم لا يبصرون من أرادوا إيذاءه، وليس حجب الرؤية على سبيل العموم، وقد سبق أن الزمخشري بين سبب تنكير الغشاوة بأنها نوع من الأغطية غير ما يتعارفه الناس، وإذا كان الأمر كذلك فما الداعي إلى التأويل وجعلها من غير الحقيقة وهو غطاء من قدرة العليم الخبير؟ فحملها على الحقيقة كالختم أولى بكل هذه الأدلة.

ويتبقى الفرق بين آية البقرة: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧﴾ البقرة:٧، وآية الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ الجاثية: ٢٣ ، من عدة أمور، أولها: علاقة الختم بسابقه فيهما، وثانيها: تكرار حرف الاستعلاء في الأولى دون الثانية، وثالثها: ذكر لفظ (جعل) في الثانية دون الأولى، ورابعها: نهاية الآيتين وعلاقته بأسباب الختم، وبالإجابة عن ذلك ينتهي القول فيهما.

وبيان ذلك: أنه لما كان الحديث في بداية سورة البقرة عن الطوائف الثلاث (المؤمنين والكافرين والمنافقين)، وبين سبحانه أنه هداية محضة للمتقين بأوصافهم المذكورة في فاتحة السورة، وأن الكافرين استوى عندهم

الإنذار وعدمه لجحودهم بعد جلاء البينات والإعراض المذكور في آية أخرى في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ فصلت: ٥.

وذكر الرازي أنهم رؤساء اليهود المعاندون الذين وصفهم الله تعالى بأنهم يكتمون الحق وهم يعلمون.(١) فمن الطبيعي أن من كان هذا حالهم يستوي عندهم الإنذار وعدمه، وفي ذلك تسكين لنفس الداعي الحريص على إيمانهم (صلى الله عليه وسلم)، ولتزداد النفس سكونا والقلب هدوءا؛ بين الحق سبحانه وتعالى أن قلوبهم قد ختم عليها، فكان الختم هنا استئنافا بيانيا يعلل هذا الاستواء الذي وصلوا إليه فيهدأ قلب النبى – صلى الله عليه وسلم – فلا يطمع في إيمانهم بعد ذلك ولا تذهب نفسه عليهم حسرات، ومن ثم كان حرف الاستعلاء (على) الدال على استعلاء الختم وتمكنه، ولعل هذا التمكن الناجم من هذا الحرف هو الذي جعل الزمخشري يسوي بين الختم والكتم، ويقول : الختم والكتم أخوان؛ لأن المقصود توثيق الشيء فلا يتغير، وتكرر هذا الاستعلاء مع السمع تأكيدا لنفي وصول الحق إليهم من أي طريق، فإذا كان القلب يأبى الحق بما عليه من ختم فإن السمع يشاركه هذا الإباء، فكان الختم عليها لسد منافذ الهداية جزاء ما كانوا يصنعون، أما الأبصار فعلتها الغشاوة التي أفقدتها التأمل، الذي هو من أبرز دواعي الاستجابة، ولم يدخل حرف الاستعلاء على القلب في آية الجاثية؛ لأن الحديث عن الضال، فيكفيه ختم واحد على السمع والقلب

---

(١) ينظر تفسير الرازى ٢/ ٤٤.

يستويان به، وبدأ في آية البقرة بالقلب مراعاة للحديث عمن توغل الكفر في قلوبهم، وهذا بالقلب أعرف منه بالسمع، والختم على السمع أخفى فما أنكره القلب لا يستفيد منه السمع، وعلل فخر الدين الرازي هذا التقديم تعليلا دقيقا؛ فبين أنه في آية الجاثية قدم ذكر السمع على القلب، وفي آية البقرة قدم القلب على السمع، والفرق أن الإنسان قد يسمع كلاما فيقع في قلبه منه أثر؛ مثل أن جماعة من الكفار كانوا يلقون إلى الناس أن النبي – صلى الله عليه وسلم – شاعر وكاهن، وأنه يطلب الملك والرياسة، فالسامعون إذا سمعوا ذلك أبغضوه، ونفرت قلوبهم عنه، وأما كفار مكة فهم كانوا يبغضونه بقلوبهم بسبب الحسد الشديد، فكانوا يستمعون إليه، ولو سمعوا كلامه ما فهموا منه شيئا نافعا.(١)

ومعلوم أن الجاثية مكية، والبقرة مدنية، والرازي بنى تعليله على ذلك، أما البقاعي فبين أنه: "لما سوى بين الإنذار وعدمه كانت البداءة بالقلوب أنسب تسوية لهم بالبهائم، ولما كان الغبي قد يسمع أو يبصر فيهتدي، وكان السمع أضر لعمومه وخصوص البصر بأحوال الضياء نفي السمع ثم البصر تسفيلا لهم عن حال البهائم، بخلاف ما في الجاثية فإنه لما أخبر فيها بالإضلال، وكان الضال أحوج شيء إلى سماع الهادي نفاه وكان الأصم ذا فهم أو بصر أمكنت هدايته، وكان الفهم أشرف نفاهما على ذلك الترتيب".(٢)

---

(١) ينظر تفسيره ٢٧/ ٢٧٠.

(٢) نظم الدرر ١/ ٣٨.

أي إنه – سبحانه وتعالى – أوقع الختم على القلوب أولا في آية البقرة نظرا لحالة هؤلاء الذين أعلنوا الكفر صراحة، ومن شدة غضب الله عليهم ثنى بالختم على السمع، حتى لا يكون لهم إلى فض هذا الختم سبيل، وثلث بجعل الغشاوة على أبصارهم ليتوقف مجال الاعتبار، الذي قد يكون داعيا للاستجابة إلى الحق.

أما الختم في آية الجاثية فقد وقع على السمع أولا ثم القلب ثانيا؛ لأن الآيات قبلها تتحدث عن نعم الله على بني إسرائيل وبغيهم بينهم، ثم بيان حالة من اتخذ إلهه هواه فتخبط في ظلمات الجهل مما يؤكد أنه في ضلال يعلمه كما قال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الجاثية: ٢٣، يقول البقاعي : ولما كان الضال أحوج إلى سماع صوت الهادي منه إلى غيره، وكان من لا ينتفع بما هو له في حكم العادم له قال: "وختم على سمعه" فلا فهم له في الآيات المسموعة، ولما كان الأصم قد يفهم بالإشارة قال: "وقلبه" ثم قال: "وجعل على بصره غشاوة"؛ بحيث لا يبصر الآيات المرئية، وترتبها هذا لأنها في سياق الإضلال.(١)

والتعبير بـ "جعل" هنا يدل على أنه صيره هكذا، وإن كان يرى فرؤياه لا نفع فيها، والتعبير هنا مع الضال أخف من الاستعلاء "على" هناك مع الكافر كفرا صريحا، ولذلك ختم المشهد في آية الجاثية ببيان أنه يمكن

---

(١) نظم الدرر ١٠٤/٧ باختصار.

هدايته ولكن ليس من قبل غير الله، وأن توهم ذلك من غير الله مستبعد مستنكر، ومن ثم كان التذييل بهذا الاستفهام "فمن يهديه من بعد الله" ؟ ثم يتبعه إنكار آخر لمن لم يتذكر قدرة الحق "أفلا تذكرون" ؟ فمن صد الله قلبه بعمله وسوء صنيعه لا يهديه إلا الله إذا أراد له ذلك كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ يونس: ٩٩، وفي كل هذا تأنيس للنبي، وتثبيت لقلبه حتى لا يجهد نفسه فيمن حقت عليه كلمة العذاب بعد أن عرف الحق؛ لذلك تناسب هذا الختام مع الحديث عن الضال الذي اتبع هواه، بخلاف آية البقرة التي ختمت بقوله سبحانه: "ولهم عذاب عظيم" بيانا للمصير الذي ينتظرهم عن استحقاق، لذلك وصفه بأنه "عظيم" تناسبا مع قوة كفرهم، وتوغلهم فيه، وإحاطته بظاهرهم وباطنهم، وهذا يتناسب مع إجمال القرآن الكريم في مقدمة سورة البقرة لهذه الطوائف الثلاث : طائفة آمنت فاهتدت وزادها القرآن هدى، وطائفة كفرت حتى استوى عندها الإنذار وعدمه، فكان لها هذا العذاب العظيم، وطائفة أظهرت خلاف ما أضمرت فكان لها العذاب الأليم، وفي كل سياق ما يناسبه .

وبهذا ينجلي الفرق بين خصوصية التعبير بـ (ختم) في آيتي البقرة والجاثية مع ما بينهما من تفاوت في ترتيب المختوم عليه.

المبحث الثاني

استعمال (ختم) على القلوب واختصاصها بالأفواه

ما سبقت دراسته كان في اشتراك القلوب والأسماع في الختم عليها، واستعمال الغشاوة على الأبصار إما بحرف الاستعلاء، وإما بفعل الصيرورة "جعل"، واستعمال الطبع على الثلاثة كما سبق في آية النحل، وتجلت دلالة ذلك كله، وبقية شواهد الختم والطبع وقع ذلك فيها على القلوب دون الأسماع، ولم تتعرض لذكر الأبصار، باستثناء (ختم) فقد وقعت على الأفواه في شاهد واحد.

فجاء الختم على القلوب فقط في شاهدين ولكل منهما مقامه:

الأول في سورة الأنعام، ومقامه التذكير بقدرة الله تعالى، ودليل صحة هذا المقام أنه سبحانه بعد أن تحدث عن قدرته على بعث الموتى وإرجاعهم إليه في قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ الأنعام: ٣٦، بين قدرته على إنزال الآية، وبيان شأن كل دواب الأرض، وبيان مصير المكذبين وموقفهم إذا حل بهم العذاب وأنه لا يستطيع كشفه أحد سواه، ثم بين على طريق التقرير الدال على علمهم بالحق ومكابرتهم في الاعتراف به إن سلبت منهم النعم الدالة إلى الحق فمن غيره يأتيهم بها؟ وذلك هو موطن الشاهد وفيه يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ الأنعام: ٤٦ .

فالختم على القلوب هنا جاء بعد تقدير أخذ السمع والأبصار، ولم يأت الحديث عن السمع بالختم، وعن الأبصار بالغشاوة كما سبق، بل تحدث عنهما بالأخذ الدال على السلب الكلي المؤدي إلى طمس المعالم، وهذا أشد من الختم المسلط على القلوب، ولو يصلح فيها الأخذ مع بقاء الحياة لعبر به، ولكن جاء التعبير بـ "ختم" الدال على إغلاقها.

أما لفظ (أخذ) فيأتي بمعنى التناول، وبمعنى التمكن كما في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ غافر: ٥، قال الزجاج: ليتمكنوا منه، وبمعنى المعاقبة والمجازاة كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ فاطر: ٤٥، والمعنى في شاهدنا : العقاب بطمس السمع والبصر، والتعبير عن ذلك بـ "أخذ" زيادة في النكال والوعيد، وهو أشد في هذا الباب من أصمكم وأعماكم كما قال في آية أخرى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ محمد: ٢٣؛ لأن الحديث في هذه الآية كان عن الذين في قلوبهم مرض ولم يصدقوا الله في قول ولا عمل فكان العقاب قاطعا صريحا، أما في شاهدنا فالسياق سياق تقرير وتأنيب وتهديد؛ لذا كان التعبير بـ "أخذ" دالا على القدرة، ومناسبا لحال من أمد الله لهم مع بغيهم وطغيانهم ونسيانهم ما ذكروا : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾ الأنعام: ٤٥، والتعبير بـ (قطع) توضيح للأخذ هنا في هذه الآية وأنه استئصال، فبعد هذا الأخذ الكلي القاطع لدابر من ظلم قبلهم جاء هذا التنكير بالأخذ الجزئي المناسب لسياق التهديد، عسى أن يكون وراءه رادع .

وفي هذا تذكير بقدرة الله سبحانه حتى لا ينصرفوا إلا إليه، فـ "أخذ" هنا بين هذين الاستفهامين "قل أرأيتم" و "من إله غير الله يأتيكم به" ليس فيها الاستئصال، وإنما هي إنذار به؛ لذلك عدها بعض العلماء مجازا في السلب والإعدام، معللا ذلك بأن السلب من لوازم الأخذ بالنسبة إلى المأخوذ، فهو مجاز مرسل، ثم قال: ولك أن تجعله تمثيلا بتشبيه هيئة إعدام الخالق بعض مواهب مخلوقة بهيئة انتزاع الآخذ شيئا من مقره، فالهيئة المشبهة هنا عقلية، والمشبهة بها محسوسة ....(١)

وأرجح إجراء الأخذ في هذا المقام على حقيقته؛ بمعنى عقاب الله بسلب ما أعطى، وبيان سلطانه على نعمه، وقد ذكر البقاعي أن التعبير بالأخذ هنا فيه غاية التحذير، وبذلك يكون الإسناد إلى اسم الجلالة (أخذ الله) إسنادا حقيقيا، حيث أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يخبرهم بقدرة الله وبأسه إن عاقبهم بذلك فهل يرده عليهم غيره؟

فكان تقريرا لهم يدل على معرفتهم بذلك، وكان الأمر الأول "قل" تبكيتا وتعنيفا لهم، والأمر الثاني الذي ختمت به الآية "انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون" تعجيبا من حالهم؛ لأن الله بذلك يمهلهم ولا يباغتهم فهو "تعجب مصحوب بمشهد الصدوف المعروف عند العرب

---

(١) ينظر روح المعانى ١٥٢/٧ والتحرير والتنوير ٢٣٤/٤.

والذي يذكرهم بمشهد البعير المؤوف فيثير في النفس السخرية والاستخفاف والعزوف".(١)

فبداية الآية ونهايتها يتناسبان مع التعبير بـ "أخذ" الدال على القدرة، والمقصود به نبذ الشرك، وأن ما يشركون به لا شأن له، ولذلك وقع الأخذ على السمع والبصر في هذا السياق؛ لبيان أن العقاب سيكون ظاهرا بالطمس المشوه للصورة، المعطل لهذه الحواس، وهنا يأتي التعبير بـ (ختم) متوجها إلى القلب كعادته في كتاب الله، ودلالته بعد إيقاع الأخذ على وسائل الفهم والإدراك تدل على التدرج في الإنذار بالعقاب .

فالختم على ما هو أعم والأخذ على الأخص، ولذلك قيل :" يجوز أن يكون الختم عطفا تفسيريا للأخذ، فإن البصر والسمع طريقان للقلب منهما يرد ما يرده من المدركات، فأخذهما سد لبابه بالكلية، وهو السر في تقديم أخذهما على الختم عليه، واعترض بأن من المدركات ما لا يتوقف على السمع والبصر، ولهذا قال غير واحد بوجوب الإيمان بالله تعالى على من ولد أعمى أصم وبلغ سن التكليف".(٢)

ويمكن الرد على هذا الاعتراض بأن المقصود هنا حالة الأخذ عقابا لمن هذا شأنه، ولذلك جاء (ختم على قلوبكم) تفسيرا مناسبا لهذه الحالة، فليس كل من لا سمع له ولا بصر مختوما على قلبه، بل هذا كان له هذه

---

(١) في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ١٠٩٢/٢.

(٢) روح المعانى ١٥٢/٧.

الحواس فأنذر بأخذها، ومن هنا يتعطل القلب الآخذ عنهما والموجه للخير أو الشر وذلك هو الختم، وهذا هو المقام الأول في شاهدي الختم على القلب فقط دون السمع.

أما المقام الثاني فمقام الحفظ والربط:

ويتجلى في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ الشورى: ٢٤.

فالختم في هذه الآية فيه اختلاف في معناه، ذكر الدامغاني: أن المعنى هنا: يربط على قلبك ويحفظه(١)، وذكر الزمخشري: أنه حفظ القلب والربط عليه بالصبر حتى لا يشق عليه أذاهم(٢). وهو أيضا ما ذكره ابن منظور ونسبه إلى الزجاج فقال: قال الزجاج: معناه إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، وعلى قولهم افترى على الله كذبا.(٣)

وهذا أفضل الوجوه عندي؛ لأمرين: أولهما: أن الكلام في سياق التبشير للمؤمنين والإنذار للظالمين، وبيان فضل الله العظيم، وثانيهما: أنه تعقب قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فأراد الحق تسليته وتثبيته، بإن يشأ يربط على قلبك فلا يتأثر بقولهم هذا، وأيضا يرجحه ما ذكره الزمخشري تعقيبا على

---

(١) ينظر الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، ١/٣٢٠، تحقيق محمد حسن أبو العزم.

(٢) ينظر الكشاف، ٣/٤٦٨.

(٣) لسان العرب (ختم). وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/٣٩٩

الآية: "وهذا مؤداه استبعاد الافتراء من مثله، وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم"(١)

فالختم هنا على ذلك كله ربط وحفظ كما قال الدامغاني وغيره...

ومن ثم استأنف الحديث بعدها بقوله ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وهذه مرحلة تالية للتي قبلها في تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم، والربط على قلبه بمحو باطلهم وإثبات الحق الذي هو عليه.

أما التعبير بـ (إن) في قوله سبحانه ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، والمعلوم أنها تفيد الشك فقد علله شهاب الدين الخفاجي بقوله: "أتى "بإن" في موضع لو إرخاء للعنان وتلميحا للبرهان على أنه لا يتصور وصفه بما ذكروه، فالتفريع بالنظر إلى المعنى المكني عنه، وحاصله أنهم اجترؤوا على هذا المحال؛ لأنهم مطبوعون على الضلال، فعليك بإمعان النظر فإن هذه الآية من أصعب ما مر بي في كلامه العظيم . وفقنا الله لفهم معانيه، وعدى الإشعار "بعلي" لتضمنه معنى البينة أو الدلالة"(٢)، ولا ريب أن هذا فهم دقيق جاء تعليقا على قول الزمخشري بأن هذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله، فعلى ذلك لا يكون الختم على قلبه كالختم على قلوب الضالين المفترين، وإنما يستعمل الختم بمعنى آخر يتناسب وشأن الرسول الكريم، ولكن جاء التعبير به دون الربط أو الحفظ مشاكلة لما يحدث لهم،

---

(١) الكشاف، ٤٦٨/٣.

(٢) حاشيته علي البيضاوي، ٤١٩/٧.

وتماشيا مع أهوائهم ليزدادوا ضلالا مع ضلالهم، فيقوى افتراؤهم ويعظم نكالهم وتزداد حجة الله عليهم، ولذلك جاء التعبير أيضا بفعل المشيئة المحذوف مفعوله، أي: إن يشأ الله الختم على قلبك ختم عليك فلا يبالي بسوء صنيعهم، وهذا يؤكد تحسره عليهم وتأثره بتصرفاتهم كما قال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الأنعام: ٣٣ ، وقوله : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ الحجر: ٩٧.

وتأتي (ختم) بمعنى "منع" في مقام الإضلال.

وذلك في سياق نهيه - سبحانه- عن عبادة الشيطان والأمر بعبادة الرحمن، ومع ذلك أضل الشيطان قوما كانوا عتاة كالجبال، وذلك جلي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَـٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ يس: ٦٠ - ٦٧ هؤلاء الذين لم يبالوا بأمر الله ونهيه زاد الحق في توبيخهم ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ ، ثم توعدهم بجهنم بسبب كفرهم، والتفت السياق القرآني عن الأمر والنهي السابق إلى أسلوب الغيبة في حقهم حيث قال: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ تجاهلا لشأنهم وكبريائهم الذي كانوا عليه.

وفيه يقول البقاعي: "ولفت القول إلى الغيبة إيذانا بالإعراض لتناهي الغضب فقال: ﴿عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ يس: ٦٥، أي: لاجترائهم على الكذب في الأخرى كما كان ديدنهم في الدنيا"(١)

فالختم على الأفواه - هنا - بمعنى منعها من الكلام، وإثباته للأيدي، وإثبات الشهادة للأرجل، ثم الطمس على الأعين معلقا على المشيئة، وهذا أبلغ في الوعيد والتهديد، وذلك سر التعبير بالمضارع: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ أي: نطمس على بصرهم كما طمسنا على بصائرهم، وكذلك نمسخهم على مكانتهم فلا يكون لهم حراك، فهذا الشاهد جمع بين تعطيل نعم كانت لها الحرية المطلقة، وبعث القدرة في نعم لم تكن لها من قبل، فالأفواه تكتم والأيدي تتكلم، والأرجل تشهد، وهذا العقاب بالختم جاء هنا على الأفواه تناسبا مع ما بنيت عليه السورة من بدايتها، حيث الإنذار في قوله سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾، وقوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾.

وكذلك تناسبا مع جدال الأفواه للمرسلين وتكذيبهم: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ إلى آخر الآيات.

فنظير هذا الجدال والتكذيب والتطير والتهديد للرسل وكل ذلك صادر من الأفواه؛ لذا كان الجزاء من جنس العمل فجاء الختم عليها اليوم فلا تتكلم، وقد كان يمكنها أن تتكلم بالحق ولكنها أعرضت وجاءت

---

(١) نظم الدرر، ٦/٢٧٥.

بالباطل، فعقابها اليوم أن يختم عليها وتنقل وظيفتها لغيرها إحكاما للشهادة وضبطا للكلمة وإثباتا لغضب الله عليها بعد أن أضمرت الحق فلم تنطق به وهي تعرفه، فاليوم لا تتكلم لا بحق ولا بغيره ... والكلام قائم على حقيقته، وفيه يقول البقاعي مجليا المعنى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: بما عملوا إقرارا هو أعظم شهادة ﴿وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ أي: عليهم بكلام بيّن و هو مع كونه شهادة إقرار، وجعل الآية من الاحتباك حيث أثبت الكلام للأيدي أولا؛ لأنها كانت مباشرة دليلا على حذفه من حيز الأرجل ثانيا، وأثبت الشهادة للأرجل ثانيا؛ لأنها كانت حاضرة دليلا على حذفها من حيز الأيدي أولا، وبقرينة أن قول المباشر إقرار وقول الحاضر شهادة(١).

وقد لحظ الشهاب الخفاجي ملحظا دقيقا في موضعين هنا : الأول في التوفيق بين هذه الآية: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ يس: ٦٥، وبين قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ النور: ٢٤، فبين أنه قد وفق بينهما، "بأن منهم من يعترف فتشهد عليهم الألسنة، ومنهم من ينكر لقوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ الأنعام: ٢٣.

أو مبهوت فيختم على أفواههم، وهذا بحسب تفاوت كفرهم وعتوهم".

---

(١) ينظر السابق، ٦/٢٧٥.

والملحظ الثاني الذي وقف عنده الشهاب هو : "إسناد الختم إليه تعالى دون الكلام والشهادة، قيل: لئلا يحتمل الجبر عليه، فقد علم أنه باختيارهم بعد إقدار الله فإنه أدل على تفضيحهم"(١).

فلما كان القوم في آية يس منكرين مبهوتين مجادلين بالباطل متطيرين من الرسل مهددين لهم بالرجم جاحدين آيات ربهم ومعرضين عنها فلا إقرار ولا اعتراف ناسب ذلك الختم على الأفواه وإثبات الكلام للأيدي، والشهادة للأرجل، أما آية النور فكانت في شأن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، والمقام مقام ترهيب بأن هذا اللسان الذي يرمي سيتحدث بما فعل، وفي ذلك دعوة إلى الكف عن ذلك في الدنيا؛ لذا كانت الشهادة هنا أعم حتى لا يتوهم من يفعل أنه يملك ناصية الكذب؛ لذلك أثبتها للأيدي والأرجل هنا حرصا على سلامة الحياة، وخاصة أن القضية مرتبطة بحديث الإفك، فالمقام هنا فيه توعية وزجر عن ذلك، أما في آية يس فلم تنفع معهم الآيات والبراهين على أنه الحق فزاد تطاولهم فكان الختم على الأفواه عقابا لهم، وليس زجرا ولا إرشادا؛ ولذلك استطرد في آية يس بالطمس على الأعين فلا يرى لها أثر، بل يمسخهم على مكانتهم، وهذا أنكى وأشد، ولكنه علقه على المشيئة ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦﴾ (يس: ٦٦) فجمعت الآيات بين عقاب قاطع

---

(١) حاشيته علي البيضاوى، ٧/٢٤٩.

"نختم" وعقاب معلق على المشيئة: وهو عقاب دنيوي يدل على إمهال الله لهم رويدا.

ويلاحظ أن الطمس هنا جاء على الأعين، وهو أشد من الغشاوة السابقة؛ بل شيء آخر يختلف عنها؛ لأن الكلام هنا عن الجوارح مفصلة؛ فالأعناق فيها أغلال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ ﴾، والأفواه يختم عليها، والأيدي تتكلم والأرجل تشهد، فلكل جارحة نوع معين بخلاف عموم الطمس على الوجوه بما تحوي في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾ النساء: ٤٧

فطمس الوجوه هنا لا يقتصر على المعنى اللغوي المعروف بالمحو أو المسح، بل جلاه الحق بقوله ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ ، أي يتحول كل شيء عن جهته التي كان عليها، وفي هذا زيادة تقبيح من جنس عملهم أيضا؛ لأنهم قلبوا موازين الحقائق حيث قالوا بعد تحريف الكلم عن مواضع فلما غيروا الصورة التي كان يجب أن يكونوا عليها وهي أن يقولوا "أطعنا" غير الله صورتهم إن لم يؤمنوا؛ لذلك عطف على هذا الطمس "اللعن" في قوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ ﴾ ، وقد سبق بيان لعن هؤلاء في قوله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ البقرة: ٦٥.

فالختم له مقاماته التي يأتي فيها مناسبا لمواقعه، والطمس كذلك له مقاماته، وبذلك تتجلى فروق التعبير بما يجعل كلا مناسبا لمقامه وسياقه.

المبحث الثالث

استعمال (طبع) على القلوب وحدها

جاء الطبع على القلوب فقط دون الأسماع والأبصار أو أحدهما في عشرة شواهد من القرآن الكريم، توجه الإسناد إلى اسم الجلالة صريحا في ستة منها، و جاء التعبير بالماضي(طبع) في ثلاثة، وبالمضارع في ثلاثة أخرى، كما جاء الإسناد إلى ضمير اسم الجلالة في شاهدين، والبناء للمفعول في آخرين، فتلك عشرة شواهد بيانها كما يلي:

أولا: شواهد التعبير بالماضي مسندا إلى اسم الجلالة:

جاء ذلك متوجها إلى القلوب خاصة في سور: النساء، والتوبة، ومحمد، ففي آية النساء يحدثنا القرآن عن أهل الكتاب الذين نقضوا الميثاق وكفروا بآيات الله وقتلوا الأنبياء بغير حق، وقالوا قلوبنا غلف أي: خلقت هكذا، ذكر ابن عباس وعطاء: يعنون في أغشية لا ذنب لنا فيها، أو أوعية للعلم نستغني بما فيها عن غيره، وقال الكلبي: يعنون أن قلوبنا بحيث لا يصل إليها شيء إلا وعته، ولو كان في حديثك شيء لوعته أيضا⁽¹⁾.

هذا على الاختلاف في معنى (غلف)، ويترجح معنى زعمهم أنها مغشاة لا يصل إليها الحق بدليل قول نظائرهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ فصلت: ٥،

---

(١) ينظر: بهجة الأديب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب لابن التركماني، ت ٧٥٠هـ، تحقيق/ خالد خميس، جـ١/١٠٠، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ونظم الدرر، ٣٤٩/٢، وروح المعاني، ٩/٦. وينظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص١٣ طبعة درا الكتب العلمية .

وبدليل دحض الحق افتراءهم بقوله: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ وذلك هو موطن الشاهد .

يقول تبارك اسمه: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ النساء: ١٥٥.

وهنا نلحظ الفرق بين زعمهم بأنها غلف، ورد الحق بأن عليها هذا الطبع بكفرهم، وهذا يجلي أنها خلقت على الفطرة لا غشاء عليها، ولما كفروا عاقبهم الله بذلك، ووضح الزمخشري ذلك بقوله : "فقيل لهم: بل خذلها الله ومنعها الألطاف بسبب كفرهم، فهم الذين غلفوا قلوبهم بما أحدثوا من الكفر الزائغ عن الفطرة، فصارت كالمطبوع عليها، لا أن تخلق غلفا غير قابلة للذكر ولا متمكنة من قبوله"(١)، فزعمهم بأنها خلقت هكذا غير مقبول، وقد فعلوا ما فعلوا فطبع الله عليها بذلك، ولكنهم "قالوا ذلك بهتا ودفعا لما قامت عليهم الحجج وظهرت لهم البينات وأعجزتهم عن مدافعة الحق المعجزات نزلوا عن رتبة الإنسانية إلى رتبة البهيمية"(٢).

ولا ريب أن كلام الزمخشري السابق يمثل رأي المعتزلة في أن العباد هم الخالقون لأفعالهم، وذلك جلي في قوله: (فهم الذين غلفوا قلوبهم ...)، ولذلك جعل الختم والطبع مسندا إلى الله على سبيل المجاز أو التمثيل، وقد بنيت موقفي في هذه الدراسة من بداية دراسة شواهدها على عدم التأويل

---

(١) الكشاف، ١/ ٥٧٨.

(٢) البحر المحيط، ١/ ٣٠١.

عملا بمذهب أهل السنة والجماعة؛ لاقتناعي بأن المجاز يحتاج إلى قرينة تصرف عن الظاهر، وليس ذلك في سياق الشواهد، فالختم والطبع كالعزة والإذلال كله بيد الله عقابا لمن يستحق ذلك، وشواهد البحث كلها تدل عليه .

ونلحظ هنا الإضراب عن زعمهم هذا بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ ، وفي آية البقرة قالوا ذلك فكان الإضراب : ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ ، وفيها يقول سبحانه : ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ البقرة: ٨٨.

ولم يرد هذا التعبير في غير هاتين الآيتين مع اختلاف الرد عليهم مرة بـ "طبع"، وأخرى بـ (لعن) وكلاهما بكفرهم، ففي آية البقرة جاء عموم اللعن أي الطرد والإبعاد عن مصادر الرحمة، وهذا يتناسب مع سياق الآيات، فقد كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه كما قال سبحانه : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٧٥، إذاً فلا طبع على قلوبهم، كما كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض كما قال ربنا منكرا عليهم : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾البقرة: ٨٥، ولما أرادوا التبرؤ من تصرفاتهم هذه قالوا قلوبنا غلف؛ لذلك كان الرد هنا بعموم اللعن، ومن ثم كان ختام الآية ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ، وهذا يناسب إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض، أي إيمانهم موجود ولكنه قليل لا يشفع لهم عند الله ولا يحول بينهم وبين اللعن.

أما الموقف في آية النساء فيتناسب معه ذكر الطبع:

﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وإن كان في ظاهر الأمر يستوي اللعن العام المؤدي إلى إغلاق سبل النجاة وإبعادهم عنها، والطبع على القلوب الحائل بينها وبين رحمة الله، إلا أن ثمة فرقا دقيقا بين الموقفين مع قوة التشابه بينهما في إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض، وقد حكته الآيات في الموقفين، وإن اختلفت طريقة التعبير عن ذلك حيث جاء بالاستفهام الإنكاري في آية البقرة التي فيها اللعن: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾البقرة: ٨٥ ، وبالإخبار في سياق آية النساء موطن شاهدنا ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾النساء: ١٥٠، فقوى التشابه، ولكن اللعن هناك لبيان أنهم كانوا يعقلون، والطبع هنا يتناسب مع تلخيص مواقفهم في نقض الميثاق والكفر بآيات الله ... فلما كان الطبع على القلوب أخص من اللعن عبر به مع هذا الجمع؛ للمواقف، لأنه الآخذ بمجامعها حيث هي صاحبة الهيمنة على كل التصرفات وبصلاحها تصلح الأعمال ... لذلك ختم الموقف هنا بقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ بتسليط النفي على الإيمان، أي: هذا الطبع يحول بينهم وبين استمرار الإيمان، فسيظل قليلا كإيمانهم ببعض وكفرهم ببعض، أو إيمانهم وجه النهار وكفرهم آخره، وذكر بعض العلماء أن قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يحتمل النصب على نعت مصدر محذوف، أي: إلا إيمانا قليلا، ولا يجوز أن يكون على الاستثناء من فاعل (يؤمنون)، أي: إلا قليلا منهم فإنهم يؤمنون؛

لأن الضمير في "لا يؤمنون" عائد على المطبوع على قلوبهم ومن طبع على قلبه بالكفر فلا يقع منه إيمان(١).

فنفي الإيمان بهذه الصورة يتناسب مع ذكر الطبع؛ لأنه يمنع دخول الإيمان كما يمنع خروج الكفر، وفي هذا عذاب لهم، والداعى له "كفرهم".

أما الطبع على القلوب في آية التوبة فجاء في شأن من تخلفوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الجهاد وكرهوه، ونفّروا غيرهم منه، وكانوا من أرباب السيادة والرئاسة ومع ذلك قعدوا ورضوا بأن يكونوا مع النساء والأطفال ... وهؤلاء جاء الحديث عنهم بمادة (طبع) مرتين، واحدة بالبناء للمفعول، والثانية بالبناء للمعلوم، والسياق يتدرج في الحديث عنهم، ويبدأ بالبناء للمفعول فيقول تبارك اسمه ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ التوبة: ٨٦ – ٨٧، والثانية بعدها بعدة آيات تسرد مواقف من يستطيع الجهاد ومن لا يستطيع، ومن عليه حرج ومن لا حرج عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ التوبة: ٩٣.

فهذان موقفان يكمل ثانيهما الأول، ولكن بدأ التعبير فيهما بالبناء للمفعول، ثم جاءت الثانية صريحة الإسناد إلى اسم الجلالة واختلف ختامهما فكان في الأولى: ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾، وفي الثانية: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ التوبة: ٩٣، وهما

---

(١) ينظر الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للجمل، ٤٣٢/١، ط الحلبى.

مسبوقتان بقوله تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾، والحديث فيهما عن المقتدرين ذكرهم القرآن أولا بـ "أولي الطول"، وثانيا بـ "الأغنياء"، والأول أخص، فقد يكون الإنسان غنيا وليست عنده وسائل السيادة، فالطوْل فيه امتداد، والغنى فيه كفاية كما قال ابن فارس في (طول) و(غنى)؛ لذلك جاء التعبير بالبناء للمفعول مع أولي الطوْل تجاهلا لطوْلهم هذا، وأنه حين أصيب بما أصيب به من ضعف وهوان وذلة أصبح طوْلا لا يؤبه له، بل هو مخذول، خذله عقل صاحبه، وأدى به إلى الصغار طلبا للسلامة؛ لذلك وسمهم بأنهم لا يفقهون، ولما كان في الطول خصوصية تبين أنهم أصحاب سيادة ورياسة قال "لا يفقهون"، وبين الراغب أن الفقه أخص من العلم فقال: "الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم" والعلم "إدراك الشيء بحقيقته"⁽¹⁾.

ويقول أبو هلال العسكرى "الفقه هو العلم بمقتضى الكلام على تأمله.." ⁽٢⁾

فهذا علم بفهم وإدراك كان يتناسب مع طوْلهم هذا لو كان طولا ناجحا، لكن لما رضوا بأن يكونوا مع الخوالف جاء التعبير بـ (طُبع) مبينا للمفعول لبيان أن عدم إدراك الحقائق وفقهها أدى إلى أن تكون القلوب مطبوعة على هذا الخزي المؤدي إلى الكفر، ولا يستحقون أن يسند هذا

---

(١) المفردات (فقه) و (علم).

(٢) الفروق اللغوية ص١٠٢.

الطبع إلى اسم الجلالة فقابل طوْلهم بالتجاهل عنه حطا لشأنه وبيان أنه لا قيمة له مع التهرب من أمر الله ورسوله.

أما الأغنياء فلا يشترط أن يكونوا من أولي السؤدد، بل عندهم الكفاية المادية التي يستطيعون بها حمل أنفسهم وحمل غيرهم في الوقت الذي كان فيه من عندهم الاستعداد ولكن الرسول لم يجد ما يحملهم عليه فرفع عنهم الحرج كما حكاه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ التوبة: ٩٢.

ولعل هذا الذي ناسب ذكر الأغنياء هنا: ﴿۞إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ التوبة: ٩٣.

فهذا في عموم من يملك المال ويستطيع الخروج للجهاد والمساعدة فيه، ولكنه رضي- كما قال الرازي – "بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف وطبع الله على قلوبهم فلأجل ذلك لا يعلمون ما في الجهاد من منافع الدين والدنيا." (١)

فهذا الطبع المسند إلى اسم الجلالة نفي للعلم عنهم، وهذا وسم بالجهل بحقائق الأمور حين سلب عنهم مجرد معرفة ما لا تحتاج معرفته إلى تأمل، بعد أن انجلى الأمر وتبين شأن الجهاد.

ولما تجاهلوا واستأذنوا في القعود وتثاقلوا عن حق الله ورسوله أسند الطبع إلى اسم الجلالة الدال على أنه بصنيعهم هذا "أغلق الله فيهم منافذ

---

(١) تفسيره ١٦/١٦٦.

الشعور والعلم، وعطل فيهم أجهزة الاستقبال والإدراك بما ارتضوه هم لأنفسهم من الخمول والبلادة والوخم"(١)

وبذلك تناسب بناء (طبع) للمعلوم مع نفي العلم بعمومه الذي يشمل الفقه والعلم، وهذا تدرج في إثبات جهلهم بحقائق الأمور حيث نفي عنهم الفقه أولا بما فيه من خصوصية تتناسب مع التعبير بـ (أولي الطَّوْل)، ثم العلم الشامل ثانيا بعد ذلك بلفظ (الأغنياء) الدال على عموم الغنى سواء كان مجرد كفاية مال أو كان مصحوبا بسؤدد، فالعام ناسب العام، والخاص ناسب الخاص، وفي الثاني كان إسناد الطبع صريحا إلى اسم الجلالة للدلالة على عموم قدرته.

وكما كان الطبع على القلوب بصيغة الماضي سببا في سلب الفقه والعلم فقد ينجم عنه اتباع الهوى، وإن صيغ السياق بواو الجمع فقد يكون أحد المجموعين سببا في الآخر، ويكون الطبع هو الذي أدى إلى اتباع الهوى لتثبت الحجة عليهم بدليلها وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ محمد: ١٦.

هل كان سؤالهم هذا لأن الله طبع على قلوبهم بسبب سوء عملهم فلم يفقهوا ما يقول، أم كان استنكارا منهم واستهزاء واتباعا للهوى فطبع الله على قلوبهم دون أن يحدد مصيرهم بعد هذا الطبع إيذانا باستحقاقهم كل عذاب؟ .

---

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٦٩٥.

عدّه الزمخشري سؤال استهزاء لأنهم كانوا لا يلقون بالا لما يستمعون تهاوناً منهم فيه.(١)

لذلك استحقوا هذا الطبع وصاروا كالبهائم حيث اتبعوا أهواءهم، وبذلك قدموا طريق الهداية، وعليه فجملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ جاءت استئنافا بيانيا ينجم عن صنيعهم هذا، كأنه قيل: ما مصير من يفعل ذلك؟ فجاءت جوابا عنه معطوفا عليها: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

والتعبير بالماضي في الطبع والاتباع: يحقق ما صاروا إليه من عدم فقههم للحق من جانب، وفطنتهم لاتباع الهوى عنادا من جانب آخر، حيث كانوا يبالغون في الاستماع، يدل على ذلك التعبير بقوله "يستمع"، وفيها يقول البقاعي: "أي بغاية جهده لعله يجد في المتلو مطعنا يشك به على الضعفاء، وبيّن بُعدهم بقوله﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ".(٢)

كما أن التعبير بهذه الإشارة فيه تشهير بهم، ومجيء الموصول وصلته خبرا عنها لإفادة أن هؤلاء المتميزين بهذه الصفات هم أشخاص الفريق المتقرر بين الناس أنهم فريق مطبوع على قلوبهم، وأنهم مُتبعون لأهوائهم.(٣)

فلما كانوا يتظاهرون بالإسلام ويؤكدون ذلك باستماعهم مع المؤمنين، ثم يعودون لهذا السؤال، "ماذا قال آنفا".

---

(١) ينظر الكشاف ٥٣٤/٣.

(٢) نظم الدرر ١٦٢/٧.

(٣) ينظر التحرير والتنوير ١٠١/٢٦.

أظهر الله حقيقتهم بهذا التعبير (أولئك) أي: البعداء الذين طبع الله على قلوبهم فانصرفوا عن الحق، واتبعوا أهواءهم، والجمع بين الطبع والاتباع يتناسب مع مبالغتهم بالتظاهر في الاستماع المعبر عنه بلفظ "يستمع".

ثانيا: شواهد التعبير بالمضارع مسندا إلى صريح اسم الجلالة وإلى ضميره :

ورد ذلك بصيغة واحدة (كذلك يطبع الله) في ثلاثة شواهد، أحدها في الأعراف، والثاني في الروم، والثالث في غافر.

أما شاهد الأعراف فيسبقه مباشرة شاهد جاء فيه الإسناد إلى ضمير اسم الجلالة، ثم تدرج التعبير حتى أسند الطبع إلى ظاهر اسم الجلالة، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الأعراف: ١٠٠ - ١٠١.

فلما أسند الإصابة إلى الضمير (أصبناهم) استدعى السياق نفس الإسناد في (نطبع)، ولما أخبر في الثانية عن عدم إيمانهم بما كذبوا من قبل أن تأتيهم البينات قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ، فالاكتفاء أولا بالإسناد إلى الضمير لتعلق الإصابة والطبع على المشيئة، أما عند تحقيق الطبع ووقوعه أظهر اسم الجلالة، بما فيه من قوة وهيمنة، وهي فيه ظاهرا ومضمرا، ولكن ظهورها يتناسب هنا مع الإصرار على الكفر بعد مجيء البينات.

وأبى الزمخشري أن يكون قوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ معطوفا على ما قبله من جهة المعنى كأنه قيل: يغفلون عن الهداية ونطبع على قلوبهم، وأجازه

ابن المنير في حاشيته على الكشاف مُعللاً أن الآية هددتهم بأمرين : الإصابة (أي العقاب) ببعض ذنوبهم، والطبع على قلوبهم، وهذا الثاني (الطبع) أشد من الأول، وهو نوع من العقاب، ولكنه أنكى أنواع العذاب، وأبلغ صنوف العقاب، وهو مناسب لكفرهم.⁽¹⁾

وجاء التعبير عن الإصابة بالماضي (أصبناهم) إشارة إلى سرعة الإهلاك، مع كونه شيئا واحدا غير متجزئ، وعن الطبع بالمضارع إيماء إلى التجدد بحيث لا يمضي زمن إلا كانوا فيه في طبع جديد.⁽²⁾

فهذا تدرج في التهديد. بدأ بالعقاب ثم الطبع الذي هو أشد أنواع العقاب؛ لذلك رتب عليه نفي السماع (فهم لا يسمعون)؛ لأن هذا الطبع أغلق عليهم منافذ الاعتبار، وصدهم عن الحق عقابا لهم، ثم يتواصل هذا التدرج ويخرج من طور المشيئة ويتجاوز مرحلة التهديد هذه إلى أن يصل إلى التحقيق في قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فصار هنا التهديد حقيقة.

يقول الزمخشري : "أي: مثل ذلك الطبع الشديد نطبع على قلوب الكافرين"⁽³⁾، أي أن تمسكهم بالكفر والتكذيب بآيات الله وصل بهم إلى منزلة المطبوع على قلوبهم؛ لذلك قال ربنا: (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) أي: مثل هذا الطبع على قلوب هؤلاء يكون الطبع على قلوب

---

(١) ينظر الكشاف والحاشية ٢/ ٩٩.

(٢) ينظر نظم الدرر ٣/ ٧٦.

(٣) الكشاف ٢/ ١٠٠.

الكافرين، وبذلك يتجلى فرق التعبير بين (نطبع) و (طبع الله)، وهنا على قلوب الكافرين قال : (يطبع الله)، وعلى قلوب المعتدين قال : (نطبع)، وهي: فريدة في قوله تعالى خلال موقف من مواقف نوح - عليه السلام - مع قومه بعد تكذيبهم وإنجاء الله له وإغراقهم: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ يونس: ٧٤ جاء الطبع هنا في سياق تكذيب الأقوام لرسلهم، ولكنه وسمهم بـ (المعتدين) تناسبا مع ما حدث بينهم وبين نبيهم من حوار كانت عاقبته إغراقهم، وجعلهم عبرة: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ يونس: ٧٣ ، كذلك الذين جاءوا من بعدهم كذبوه ولم يعتبروا بما حدث لأسلافهم فطبع الله على قلوبهم ففقدوا كل وسائل معرفة الحق؛ لذلك قال "فما كانوا ليؤمنوا" باصطحاب النفي للام الجحود، دلالة على أن إيمانهم في حيز الاستحالة والامتناع.(١)

فكان الطبع في الأعراف على قلوب الكافرين؛ لأن السياق قبلها يتحدث عنهم كثيرا بهذا الوصف نحو قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ الأعراف: ٩٠ وقوله: ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ الأعراف: ٩٣.

أما السياق في آية يونس فكان سياق تكذيب؛ لذلك جعلهم معتدين لتجاوزهم حدودهم مع أنبيائهم، وكثرة جدالهم لهم، كما كان يجادل قوم

---

(١) ينظر البحر المحيط ٥/١٨٠.

نوح نوحا ويتهمونه بذلك في قولهم: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ هود: ٣٢، وعدم التصريح باسم الجلالة هنا إظهارا لعظمته وتحقيرا لشأنهم، وقد تعاظموا أمر نبيهم، وكذبوه لذلك وسمهم بالاعتداء. وجاء التعبير بـ (نطبع) المسند إلى ضمير العظمة حطا من تعاظمهم .

ولما تحدث القرآن عن تشبيه الكفار بالموتى لعدم استفادتهم مما يسمعون وجعلهم عميا ضلالاً في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ﴾الروم: ٥٣ ، وكشف عن ضلالهم هذا بقوله: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ الروم: ٥٨ ، هنا جاء الطبع بصيغة المضارع الدالة على تجدده مع الإسناد إلى ظاهر اسم الجلالة فقال سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الروم: ٥٩.

والتصريح هنا باسم الجلالة يتناسب مع بيان دلائل قدرته في مراحل العمر: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ الروم: ٥٤، فبعد هذه الدلائل العملية الظاهرة حين يحدث إنكار للبعث، وتكذيب لآيات الله، واتهام لرسله بالباطل، بعد ذلك يكون الطبع على القلوب مسندا إلى ظاهر اسم الجلالة الدال على الهيمنة الداحضة لهذا الافتراء، ثم يأتي الوسم بأنهم لا يعلمون، وفي ذلك

سلب لكل معرفة؛ لأن حالة تطور مراحل عمر الإنسان جلية لكل أحد مهما قلَّ علمه، فإذا أُنكرت آيات الله بعد ذلك فإنه الطبع على القلوب بلا ريب عقاباً لهم على تجاهلهم الحقائق، وسعيهم وراء الباطل، ومن ثم كان هذا البيان : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ (٥٩) ﴾ الروم: ٥٩ تسلية للنبي – صلى الله عليه وسلم – بدليل قوله عقيبه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ الروم: ٦٠.

- ويتبقى من شواهد التعبير بالمضارع التي جاء الإسناد فيها إلى ظاهر اسم الجلالة قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ غافر: ٣٥ ، وسبقت دراستها في إفراد القلب وتنكيره في بداية هذه الدراسة.

ثالثا: التعبير بـ (طُبع) مبنيا للمفعول.

ورد ذلك في شاهدين فقط سبق بيان أحدهما في سورة التوبة لترابطه مع ما جاء فيه التعبير بـ (طبع) بعده مسنداً إلى صريح اسم الجلالة، وتجلى ما في الأسلوب من تدرج.

والآخر هو قوله تعالى متحدثا عن المنافقين الذين اتخذوا أيمانهم الباطلة وقاية لكذبهم فصدوا عن سبيل الله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ المنافقون: ٣.

فقوله "ذلك" إشارة إلى العمل السيئ الذي جعلهم يصدون عن سبيل الله والمنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ المنافقون: ٢، فتلاعبهم بدين الله ودخولهم فيه وخروجهم منه كان في هذا الطبع، وترتب عليه وسمهم بأنهم (لا يفقهون)، ودليل عدم فهمهم للإيمان هنا ظاهر بصنيعهم هذا، فاستحقوا هذا الطبع ليختم لهم بالكفر، ولا تكون لهم إلى الإيمان عودة؛ لذلك تقدم الطبع على قلوبهم على عدم فقههم، ولكل سياق ما يناسبه كما تجلى.

والله الموفق للصواب

خاتمة

تلك دراسة بلاغية تطبيقية موجزة تجلت من خلالها الفروق الدقيقة بين دلالة (ختم) ودلالة (طبع) في السياقات القرآنية، وما بينهما من عموم وخصوص، فمقام تستقيم فيه (ختم) دون سواها، وآخر توافقه (طبع) ولا تقوم مقامها (ختم) ولا غيرها، وهكذا كلمات القرآن، لكل كلمة في مكانها دلالة لا تؤديها غيرها .

وهذا البحث كله نتائج في الفروق التطبيقية بين دلالة المادتين، واستعمال هذه هنا وتلك هناك، حيث حرص على الإيجاز تقديرا لرأي اللجنة القائمة على الندوة، ومع ذلك سأسوق بعضا من هذه النتائج، وفي مقدمتها :

- التقارب اللغوي بين دلالة المادتين جعل كثيرا من علماء اللغة لا يذكرون بينهما كبير فرق، بل فسر بعضهم (ختم) بـ (طبع)ونص على أن الختم هو الطبع، والدراسة جلت – بإيجاز – خصائص التعبير بكل منهما من خلال الشواهد .
- ذكر كثير من المفسرين أنهما من باب المجاز، ورأى بعضهم صلاحية المجاز والحقيقة فيهما، ورجحت الحقيقة بالأدلة التي تبين أن الختم أو الطبع نوع من العقاب تثبت به الحجة على من خُتم على قلبه أو طُبع عليه بكفره فلا يخرج منه كفر ولا ينفذ إليه إيمان .
- الختم جاء على القلب والسمع ولم يأت على البصر، والطبع جاء على الثلاثة في شاهد واحد، بينما تميز الختم بالمجيء على الأفواه في شاهد واحد أيضا، ولكل دلالته التي بني هذا العمل على محاولة تجليتها .
- شواهد الطبع أكثر من ضعف شواهد الختم، ومعظمها يختم بنفي السمع أو الفقه أو العلم، أو الإيمان، أو إثبات الغفلة، أما ختم فتارة تعطي نهاية القرار بنوع العذاب، وتارة تندد ببعدهم عن الحق .
- قد يشتركان في الحديث عن الكافرين، ولكن سياق كل منهما يتواءم مع ما ذكر فيه، وهذا ما قامت الدراسة عليه .

والله ولي التوفيق .

دليل المصادر والمراجع

١- أساس البلاغة للزمخشري.

٢- أسباب النزول للسيوطي.

٣- أسباب النزول للواحدي.

٤- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز للنورسي تحقيق إحسان الصالحي.

٥- البحر المحيط لأبى حيان طبعة دار الفكر.

٦- التحرير والتنوير لابن عاشور ط دار سحنون.

٧- الفتوحات الإلهية للجمل. دار الفكر.

٨- الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ط دار الكتب العلمية.

٩- الكشاف للزمخشري دار المعرفة.

١٠- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني.

١١- الوجوه والنظائر لألفاظ من كتاب الله العزيز للدامغاني ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

١٢- بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب لابن التركماني ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

١٣- تفسير الفخر الرازى ط دار الفكر.

١٤- تهذيب اللغة للأزهري.

١٥- حاشية ابن المنير الإسكندري على الكشاف.

١٦- حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي.

١٧- روح المعانى للألوسي دار الفكر.

١٨- في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب دار الشروق.

١٩- لسان العرب لابن منظور.

٢٠- مقاييس اللغة لابن فارس.

٢١- نظم الدرر للبقاعي دار الكتب العلمية